

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ﴾ لفظ استفهام؛ ولذلك سقطت منها ألف «ما»، لتمييز الخبر عن الاستفهام، وكذلك: «فيم، ومم» إذا استفهمت، والمعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضا، وقال الزجاج: أصل ﴿عَمَّ﴾ عن ما فادغمت النون في الميم، لأنها تشاركها في الغنة، والضمير في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ لقريش، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؟ وقيل ﴿عَمَّ﴾ بمعنى: فيم يتشدد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ أي: يتساءلون ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ فعن ليس تتعلق بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الذي في التلاوة، وإنما يتعلق يتساءلون آخر مضمرة، وحسن ذلك لتقدم ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ قاله المهدي.

وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله: ﴿عَنِ﴾ مكرر إلا أنه مضمرة، كأنه قال: عم يتساءلون أعن النبأ العظيم؟ فعلى هذا يكون متصلا بالآية الأولى، و﴿النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الخبر الكبير. قوله تعالى: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: يخالف فيه بعضهم بعضا، فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن؛ دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) أُنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ [ص] فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن. وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدق ومكذب (١)، وقيل: أمر النبي ﷺ.

وروي الضحاك عن ابن عباس قال: وذلك أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن أشياء كثيرة. فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم، ثم هددهم فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون البعث: أحق هو أم باطل.

و ﴿كَلَّا﴾ رد عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها، ويجوز أن يكون

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٤/٣٠) في تفسيره.

بمعنى حقا أو: «ألا» فيبدأ بها، والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبا: ١٧] يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقا ليعلمن صدق ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، وبما ذكره لهم من البعث بعد الموت، وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم^(١)، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس أيضا، وقال الحسن: هو وعيد بعد وعيد^(٢)، وقراءة العامة فيهما بالياء على الخير؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وقرأ الحسن وأبو العالية. ومالك بن دينار بالتاء فيهما.

﴿الَّذِي نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ۝ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا أَفْقًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ دلهم على قدرته على البعث؛ أي: قدرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة، والمهاد: الوطاء والفراش، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢] وقرئ «مهدا»، ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو ما يهد له فينوم عليه ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها، ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافا: ذكرا وأنثى، وقيل: ألوانا، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ﴿جَعَلْنَا﴾ معناه صيرنا؛ ولذلك تعدت إلى مفعولين، ﴿سُبَاتًا﴾ المفعول الثاني، أي: راحة لأبدانكم، ومنه يوم السبت أي: يوم الراحة؛ أي: قيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئا، وأنكر ابن الأنباري هذا وقال: لا يقال للراحة سبات، وقيل: أصله التمدد؛ يقال: سبت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسبات كالمد، ورجل مسبوت الخلق: أي: ممدود، وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبوتا، وقيل: أصله القطع؛ يقال: سبت شعره سبوتا: حلقه؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح، ويقال: سير سبت: أي: سهل لين.

قال الشاعر:

وَمَطْوِيَةِ الْأَقْرَابِ أَمَا نَهَارُهَا فَسَبْتٌ وَأَمَا لَيْلُهَا فَذَمِيلٌ

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ أي: تلبسكم ظلمته وتغشاكم؛ قاله الطبري، وقال ابن جبير والسدي: أي: سكننا لكم، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فيه إضمار، أي: وقت معاش، أي: متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من الطعام والمشرب وغير ذلك فـ ﴿مَعَاشًا﴾ على هذا اسم زمان، ليكون الثاني هو الأول، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبع

(١) ضعف: الطبري (٤/٣٠) من طريق ابن حميد وهو متهم بالكذب.

(٢) رواه السيوطي (٦/٤٩٩) في الدر المنثور، وعزاه لابن المنذر.

سموات محكمات؛ أي: محكمة الخلق وثيقة البنيان، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ أي: وقادا وهي الشمس، وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدت لمفعول واحد والرهاج الذي له وهج؛ يقال: وَهَجَ يَهْجُ وَهَجًا وَوَهَجًا، ووهجانا، ويقال للجوهر إذا تلالأ: توهج، وقال ابن عباس: وهاجا منيرا متلألأنا (١)، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهد وقتادة: والمعصرات الرياح (٢)، وقاله ابن عباس كأنها تعصر السحاب (٣)، وعن ابن عباس أيضا: أنها السحاب (٤)، وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أي: السحاب التي تنعصر بالماء ولما تظمر بعد، كالمرأة المعصر التي قد دنا حيضها ولم تحض (٥)، قال أبو النجم:

تَمَشِي الهَوَيْتِي مَائِلًا خِمَارُهَا قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدَدْنَا إِعْصَارُهَا

وقال آخر:

فَكَانَ مِجْنِي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانَ وَمُعْصِرٍ

وقال آخر:

وَذِي أُشْرٍ كَالْأُقْحَوَانِ يَزِينُهُ ذِهَابُ الصَّبَا وَالْمُعْصِرَاتُ الرَّوَّاحُ

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الرياح تعصر إعصارا: إذا أثار العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تظمر، وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء (٦). النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر معصرات، والرياح تلتفح السحاب، فيكون المطر، والمطر ينزل من الرياح على هذا، ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب، كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان بالمعصرات لكان الرياح أولى، وفي الصحاح: والمعصرات: السحاب تعصر بالمطر، وأعصر القوم، أي: أمطروا؛ ومنه قرأ بعضهم: «وَفِيهِ يُعْصِرُونَ» والمعصر: الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز:

جَارِيَةٌ بَسْفَوَانِ دَارِهَا تَمَشِي الهَوَيْتِي سَاقِطًا خِمَارُهَا

قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدَدْنَا إِعْصَارُهَا

والجمع: معاصر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام، سمعته من أبي الغوث الأعرابي، قال غيره: والمعصر: السحابة التي حان لها أن تظمر؛ يقال: أجزّ الزرع فهو مجز؛ أي: صار إلى أن يُجزَّ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يظمر فقد أعصر، وقال المبرد: يقال: سحاب معصر، أي: تمسك للماء، ويعتصر منه شيء بعد شيء، ومنه المعصر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعصرة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة

(١) منقطع: بين علي بن أبي طلحة والوالي وابن عباس. الطبري (٣٠ / ٦).

(٢) صحيح إليهما: الطبري (٣٠ / ٦، ٧) في تفسيره.

(٣، ٤) ضعيف: الطبري (٣٠ / ٦) عن طريق العوفين.

(٥) انظر: الدر المنثور (٦ / ٤٩٩).

(٦) انظر: الطبري (٣٠ / ٩) في تفسيره وسنده صحيح.

«يوسف» (١) والحمد لله، وقال أبو زيد:

صَادِيًا يَسْتَعِيثُ غَيْرَ مُعَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةَ الْمُنْجُودِ

ومنه المعصر للجارية التي قد قربت من البلوغ، يقال لها: معصر؛ لأنها تحبس في البيت، فيكون البيت لها عصرا، وفي قراءة ابن عباس وعكرمة: «وأنزلنا بالمعصرات» (٢)، والذي في المصاحف «مِنَ الْمُعْصِرَاتِ» قال أبي بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: «مِنَ الْمُعْصِرَاتِ» أي: من السموات (٣)، «مَاءٌ تُجَاجَا» صبايا متتابعاء؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما (٤). يقال: تُججت دمه فانا أنججه نُججا، وقد نَجَّ الدَّمُ يَنْجُ نُجُوجًا، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعد، والشجاج في الآية المنصب، وقال الزجاج: أي: الصباب، وهو متعد كأنه ينج نفسه، أي: يصب، وقال عبيد بن الأبرص:

فَنَجَّ أَعْلَاهُ ثُمَّ ارْتَجَّ أَسْفَلُهُ وَضَاقَ ذَرْعًا بِحَمْلِ الْمَاءِ مُنْصَاحٍ

وفي حديث النبي ﷺ أنه سئل عن الحج المبرور فقال: «العج والثج» (٥)، فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا، وقال ابن زيد: نُججا كثيرا، والمعنى واحد. قوله تعالى: «لِنُخْرِجَ بِهِ» أي: بذلك الماء «حَبًّا» كالحنطة والشعير وغير ذلك. «وَبَنَاتًا» من الأب، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش، «وَجَنَاتٍ» أي: بساين. «أَلْفَافًا» أي: ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخفاف، وقيل:

واحد الألفاف لف بالكسر ولَّف بالضم، ذكره الكسائي، قال:

جَنَّةٌ لُفٌّ وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زَهْرٌ

وعنه أيضا وأبي عبيدة: لفيف كشریف وأشرف، وقيل: هو جمع الجمع، حكاه الكسائي، يقال: جنة لفاء ونبت ألف والجمع لُفُّ بضم اللام مثل حُمُرٍ، ثم يجمع اللُفُّ أَلْفَافًا، الزمخشري: ولو قيل: جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها، ويقال: شجرة لفاء وشجر لف وامرأة لفاء: أي: غليظة الساق مجتمعة اللحم، وقيل: التقدير: ونخرج به جنات أَلْفَافًا، فحذف لدلالة للكلام عليه، ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساين تكون متقاربة، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَاتُونَ أَفْوَاجًا ﴿٣٨﴾ وَقُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٣٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: «إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا» أي: وقتنا ومجمعا وميعادا للاولين والآخرين، لما وعد الله

(١) عند الآية (٤٩).

(٢) قراءة غير متواترة. انظر: المحرر الوجيز (٢٠٩/١٦) لابن عطية.

(٣) انظر: الطبري (٨/٣٠) في تفسيره، وابن كثير (٨/٥٣٧، ٥٣٨) في تفسيره.

(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة، وابن عباس، ورواه الطبري من طريق العوفيين (٩/٣٠، ١٠).

(٥) صحيح: الترمذي (٨٢٧) في الحج، وابن ماجه (٢٩٢٤)، في المناسك كلاهما عن أبي بكر رضي الله عنه وصححه الألباني هناك.

من الجزاء والثواب، وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أي: إلى موضع العرض .

﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أما، كل أمة مع إمامهم، وقيل: زمرا وجماعات، الواحد: فوج، ونصب يوما بدلا من اليوم الأول، وروي من حديث معاذ بن جبل قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ فقال النبي ﷺ: « يا معاذ بن جبل لقد سألت عن أمر عظيم» ثم أرسل عينيه باكيا، ثم قال: « يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا، قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صورهم، فمنهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يتردون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، فهي مدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعبابا، يتقذرمهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشد نتنا من الجيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابعة من القطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة: فالقتات من الناس - يعني النمام - وأما الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت والحرام والمكس، وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم: فأكلة الربا، والعمى: من يجور في الحكم، والضم البكم: الذين يعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتنا من الجيف: فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله من أموالهم، والذين يلبسون الجلابيب: فأهل الكبر والفخر والخيلاء»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي: لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِأَنْعَامٍ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيرَاتٍ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقيل: تقطعت، فكانت قطعاً كالأبواب فاتنصب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف، وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبوابا، وقيل: أبوابها طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب، وقيل: إن لكل عبد باين في السماء: بابا لعمله، وبابا لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب، وفي حديث الإسراء: « ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا »^(٢)، ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: لا شيء كما أن السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء .

وقيل: ﴿سِيرَتِ﴾ نسفت من أصولها، وقيل: أزيلت عن مواضعها .

(١) موضوع : انظر: تنزيه الشريعة (٢/ ٣٨٩) لابن عراق .

(٢) متفق عليه : ضمن حديث المعراج الطويل ، ورواه البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق ، ومسلم (١٦٤ / ٢٦٤) في الإيمان كلاهما عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة النجاري - رضي الله عنهما .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١٤﴾ لِلطَّاغِيْنَ مَثَابًا ﴿١٥﴾ لِّلَّذِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٦﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرَدَا وَلَا شَرَابًا ﴿١٧﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿١٨﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٩﴾ إِنَّمُمْ كَانُوا إِلَّا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٢﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ مفعال من الرصد، والرصد: كل شيء كان أمامك، قال الحسن: إن على النار رصدا، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجئ بجواز حبس، وعن سفيان رضي الله عنه قال: عليها ثلاث فئاطر، وقيل: ﴿مِرْصَادًا﴾ ذات أرصاد على النسب؛ أي: ترصد من يمر بها ^(١)، وقال مقاتل: محبسا، وقيل: طريقا وممرًا، فلا سبيل إلى الجنة حتى يقطع جهنم.

وفي «الصحاح»: والمرصاد: الطريق، وذكر القشيري: أن المرصاد: المكان الذي يرصد فيه الواحد العدو، نحو المضمار: الموضع الذي تضم فيه الخيل، أي: هي معدة لهم؛ فالمرصاد بمعنى: المحل؛ فاللائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم، وذكر الماوردي ^(٢) عن أبي سنان أنها بمعنى راصدة، تجازيهم بأفعالهم، وفي «الصحاح»: الراصد للشيء: الراقب له؛ تقول: رَصَدَهُ يَرِصُدُهُ رَصْدًا وَرِصْدًا، والترصد: الترقب، والمرصد: موضع الرصد، الأصمعي: رصده أرصده: ترقبته، وأرصدته له: أعددت له، والكسائي: مثله يرصد.

قلت: فجهنم معدة مترصدة، متفعل من الرصد وهو الترقب؛ أي: هي متطلعة لمن يأتي، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ﴿لِلطَّاغِيْنَ مَثَابًا﴾ بدل من قوله: ﴿مِرْصَادًا﴾ والمآب: المرجع، أي: مرجعا يرجعون إليها؛ يقال: أب يؤوب أوبة: إذا رجع، وقال قتادة: مأوى ومنزلا، والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

قوله تعالى: ﴿لَا بَتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي: ما كثر في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حَقْبٌ جاء حَقْبٌ، والحَقْبُ بضمين: الدهر والأحقاب: الدهور، والحِقْبَةُ بالكسر: السنة؛ والجمع حقب؛ قال متمم بن نويرة التميمي:

وَكُنَّا كِنْدَمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةٍ مِّنِ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَانِي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

والحَقْبُ بالضم والسكون: ثمانون سنة، وقيل: أكثر من ذلك وأقل، على ما يأتي، والجمع: أحقاب، والمعنى في الآية: لا بئين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة للدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال: أيام الآخرة؛ أي: أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب، ونحوه. وذكر الأحقاب لأن الحقب

(١) ضعيف: فيه ابن حميد كما رواه الطبري (٣٠/ ١١) في تفسيره، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٩).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (٦/ ١٨٥) المسمى بـ (النكت والعيون).

كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأييد، أي: يكتشون فيها أبداً، وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود، والمعنى متقارب؛ وهذا الخلود في حق المشركين، ويمكن حمل الآية على العصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب، وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٢) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا، و﴿لَا يَتَيْنِ﴾ اسم فاعل من لبث، ويقويه أن المصدر منه اللبث بالإسكان، كالشرب، وقرأ حمزة والكسائي «لبين» بغير ألف (١) وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابت ولبث، مثل طمع وطماع، وفره وفاره، ويقال: هو لبث بمكان كذا: أي: قد صار اللبث شأنه، فشبه بما هو خلقه في الإنسان نحو: حذر وفرق؛ لأن باب فعل إنما هو لما يكون خلقه في الشيء في الأغلب، وليس كذلك اسم الفاعل من لابت.

والحُقْبُ: ثمانون سنة في قول ابن عمر وابن محيصن وأبي هريرة، والسنة ثلاثمائة يوم وستون يوماً، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا، قاله ابن عباس (٢)، وروي ابن عمر هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ (٣) وقال أبو هريرة: والسنة ثلاثمائة يوم وستون يوماً كل يوم مثل أيام الدنيا (٤)، وعن ابن عمر أيضاً: الحقب: أربعون سنة (٥). السدي: سبعون سنة، وقيل: إنه ألف شهر (٦)، رواه أبو أمامة مرفوعاً (٧). بشير بن كعب: ثلاثمائة سنة. الحسن: الأحقاب لا يدري أحد كم هي، ولكن ذكروا أنها مائة حقب، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كالف سنة مما تعدون (٨)، وعن أبي أمامة أيضاً، عن النبي ﷺ: «إِنَّ الْحُقْبَ الْوَاحِدَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ» (٩) ذكره المهدوي، والأول الماوردي، وقال قطرب: هو الدهر الطويل غير المحدود.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً، الحقب بضع وثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة مما تعدون؛ فلا يتكلن أحدكم على أن يخرج من النار»، ذكره الثعلبي (١٠)، القرطبي: الأحقاب: ثلاثة وأربعون حقبا، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون

(١) قراءة سبعة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٦).

(٢) هذا عند الطبري (٣٠ / ١٢) في تفسيره بسند ضعيف جداً.

(٣) ضعيف جداً: إن لم يكن موضوعاً: الهيثمي (١٠ / ٣٩٥) في مجمع الزوائد، وعزاه للبخاري وفيه سليمان بن مسلم الخشاب وهو ضعيف جداً.

(٤) ضعيف: ذكره السيوطي (٦ / ٥٠٢) في الدر المنثور وعزاه للطبري وابن أبي حاتم، وكذا ذكره الطبري (٣٠ / ١٢).

(٥) بإسناد فيه شريك وهو سئ الحفظ، وفيه عاصم بن بهدلة وهو صدوق له أوام.

(٦) سبق تضعيفه وقد رواه ابن أبي حاتم كما عند ابن كثير (٨ / ٢٣٩) في تفسيره.

(٧) ذكره ابن كثير (٨ / ٢٣٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٨) ضعيف جداً: الهيثمي (٧ / ٢٣٣) في المجمع وعزاه للطبراني بسند فيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف.

(٩) فيه تدليس هشام بن حسان عن الحسن، ورواه الطبري (٣٠ / ١٣) في تفسيره.

(١٠) ضعيف جداً: انظر السابق.

(١١) ضعيف جداً: وقد سبق روايته عند البخاري بإسناد فيه سليمان الخشاب وهو ضعيف.

يوماً، كل يوم ألف سنة.

قلت : هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود، يحتاج إلى توكيف يقطع العذر، وليس ذلك بشابت عن النبي ﷺ، وإنما المعنى - والله أعلم - ما ذكرناه أولاً؛ أي: لاثنين فيها أزماناً ودهوراً^(١)، كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الأبدين من غير انقطاع، وقال ابن كيسان: معنى «لاثنين فيها أحقاباً» لا غاية لها ولا انتهاء، فكأنه قال: أبداً، وقال ابن زيد ومقاتل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نُّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ يعني أن العدد قد انقطع، والخلود قد حصل.

قلت : وهذا بعيد؛ لأنه خبير، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الاعراف: ٤٠] على ما تقدم، هذا في حق الكفار، فأما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص، والله أعلم، وقيل: المعنى «لاثنين فيها أحقاباً» أي: في الأرض؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في «لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً» لجهنم، وقيل: واحد الأحقاب حقب وحقبة؛ قال:

فإن تآ عنها حِقْبَةٌ لا تَلاقِهَا فَأنك بما أهدتُه بِالْمُجْرَبِ

وقال الكميت:

مرَّ لها من بعد حِقْبَةٍ حَقْبٌ

قوله تعالى: «لا يذوقون فيها» أي: في الأحقاب «برداً ولا شرباً» البرد: النوم في قول أبي عبيدة

وغيره؛ قال الشاعر:

ولو شئتُ حرَّمتُ النساءِ سِوَاكُمْ وإن شئتُ لم أطعمُ نفاخا ولا برداً

وقاله مجاهد والسدي والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي؛ وأنشدوا قول الكندي:

بردتُ مرَّاشفها عليَّ فصدني عنها وعن تقيلها البرد

يعني النوم، والعرب تقول: منع البرد البرد، يعني: أذهب البرد النوم.

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل: هل في الجنة نوم؟ فقال: «لا؛ النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها»^(٢) فكذلك النار؛ وقد قال تعالى: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال ابن عباس: البرد: برد الشراب^(٣)، وعنه أيضاً: البرد: النوم؛ والشراب الماء^(٤)، وقال الزجاج: أي: لا يذوقون فيها برد ریح، ولا ظل، ولا نوم، فجعل البرد برد كل شيء له راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهير فهو برد يتأذون به، فلا ينفعهم، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به، وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بردا: أي: روحاً وراحة؛ قال الشاعر:

فلا الظلُّ من برد الضُّحى تستطيعُ ولا الفیء أوقات العشي تذوقُ

قوله تعالى: «لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً» جملة في موضع الحال من «الطاعين»، أو نعت

للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان، والعامل فيه «لاثنين» أو «البئين» على تعدية فعل، «إلا حميماً

(١) ضعيف إلى أبي معاذ الخرساني: الطبري (٣٠/ ١٣) في تفسيره.

(٢) صحيح: صححه الألباني (١٠٨٧) في الصحيحة وقد سبق عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما.

(٣) (٤، ٣) ضعيف: ابن الجوزي (٦/ ١١٤) في زاد المسير من طريق أبي صالح، عن ابن عباس والسند واه جداً.

وَعَسَاقًا استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه، والحميم: الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة، وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يسقونه، قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحمام، ومنه الحمى، ومنه ﴿وَلَمْ يَمْنُوحُوا﴾ (٤٦) [الواقعة]: إنما يراد به النهاية في الحر، والغساق: صديد أهل النار وقيحهم، وقيل: الزمهرير، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في «ص» القول فيه (١)، ﴿جَزَاءٌ وَقَافًا﴾ أي: موافقا لأعمالهم، عن ابن عباس (٢) ومجاهد وغيرهما؛ فالوفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى المقاتلة، و﴿جَزَاءٌ﴾ نصب على المصدر، أي: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم؛ قاله الفراء والأخفش، وقال الفراء أيضا: هو جمع الوفق، والوفوق واللفق واحد، وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار، وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوؤهم (٣)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون ﴿حِسَابًا﴾ أي محاسبة على أعمالهم، وقيل: معناه لا يرجون ثواب حساب. الزجاج: أي: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم، ﴿وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ أي بما جاءت به الأنبياء، وقيل: بما أنزلنا من الكتب، وقرائة العامة ﴿كَذَابًا﴾ بتشديد الذال، وكسر الكاف، على كذب، أي كذبوا تكذبا كبيرا، قال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة؛ يقولون: كذبت «به» كذابا، وخرقت القميص خراقا؛ وكل فعل في وزن: «فَعَلَّ» فمصدره فعال مشدد في لغتهم؛ وأنشد بعض الكلابيين:

لقد طال ما بَطَّنْتِي عن صاحبتِي وعن حوجٍ قضاؤها من شفاتنا

وقرأ علي رضي الله عنه «كذابا» بالتخفيف (٤) وهو مصدر أيضا، وقال أبو علي: التخفيف والتشديد جميعا: مصدر المكاذبة، كقول الأعشى:

فصدقتها وكذبتُها والمرءُ ينفعه كذابه

أبو الفتح: جاء جميعا مصدر: كذب وكذب جميعا، الزمخشري: «كذابا» بالتخفيف مصدر كذب؛ بدليل قوله:

فصدقتها وكذبتُها والمرءُ ينفعه كذابه

وهو مثل قوله: ﴿أَنْتُمْ مَنِ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] يعني: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا، أو تنصبه بـ ﴿وَكَذَّبُوا﴾، لأنه يتضمن معنى كذبوا؛ لأن كل مكذب بالحق كاذب وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا فكانوا مكاذبة، أو: وكذبوا بها مكاذبين؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مكاذبة، وقرأ ابن عمر: «كذابا» بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم، ونصبه على الحال الزمخشري، وقد يكون الكذَّابُ: بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذَّاب، كقولك حسان وبخال، فيجعل صفة لمصدر ﴿كذَّبُوا﴾ أي: تكذبا كذابا مفرطا كذبه، وفي «الصحيح»: وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا كَذَابًا﴾ وهو أحد مصادر المشدد؛ لأن

(١) عند الآية (٥٧).

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس كما في تفسير الطبري (٣٠ / ١٦).

(٤) قراءة سبعة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٦).

مصدره قد يجيء على «تفعيل» مثل التكليم وعلى «فعال» مثل: كذاب وعلى «تفعلة» مثل توصية، وعلى «مفعول» مثل ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿كُلُّ﴾ نصب بإضمار فعل يدل عليه ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه، وقرأ أبو السمال: «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء.

﴿كِتَابًا﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتاباً، ثم قيل: أراد به العلم، فإن ما كتب كان أبعد من النسيان، وقيل: أي: كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة، وقيل: أراد ما كتب على العباد من أعمالهم، فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿٥٦﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار]، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال أبو برزة: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن؟ فقال: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (١) أي: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودَهُمْ بِذُلَّتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] و﴿كَلِمًا حَبَّتْ زِدَانَهُمْ سَمِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٥٧﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٥٨﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٥٩﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٦٠﴾ لَا يَسْمُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٦١﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذكر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله ﴿مَفَازًا﴾ موضع فوز ونجاة وخلص مما فيه أهل النار، ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلص منها، ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ هذا تفسير الفوز، وقيل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ إن للمتقين حدائق؛ جمع حديقة، وهي البستان المحوط عليه؛ يقال أحدق به: أي: أحاط، والأعناب: جمع عنب، أي: كروم أعناب، فحذف، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعب: جمع كاعب وهي الناهد؛ كعبت الجارية تكعب كعوباً، وكعبت تكعبت كعيباً، ونهدت تنهدت نهوداً، وقال الضحاك: الكواعب: العذارى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وَكَمْ مِنْ حِصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةً
وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ مُعْصِرُ

والأتراب: الأقران في السن، وقد مضى في سورة «الواقعة» (٢) الواحد: ترب، ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس: مترعة مملوءة (٣)؛ يقال: أدهقت الكأس: أي: ملأتها، وكأس دهاق، أي: مملئة؛ قال:

أَلَا فَاسِقِنِي صِرْفًا سَقَانِي السَّاقِي
مِنْ مَائِهَا بِكَاسِكَ الدَّهَاقِ

وقال خدش بن زهير:

أَنَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا
فَأْتُرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقَا

وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وابن عباس (٤) أيضاً: متتابعة، يتبع بعضها بعضاً؛ ومنه

(١) ضعيف جداً: كذا قال ابن كثير (٢٤١ / ٨) وأعله به (جسر بن فرقد).

(٢) عند الآية (٣٧).

(٣) ذكرها الطبري جميعاً في تفسيره (٢٠ / ٣٠) وهي أفعال صحاح، وقد رويت عن ابن عباس بأسانيد فيها ضعف، لكنها تتعاضد لتحسن - إن شاء الله.

(٤) حسن: الطبري (٢١ / ٣٠) في تفسيره، وباقي الأسانيد صحاح أيضاً.

أدهقت الحجارة أدهاقا، وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتابع كالتداخل، وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم: صافية؛ قال الشاعر:

لَأَنْتِ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قَرِيبًا مِنْ الصَّادِي إِلَى كَأْسِ دِهَاقٍ

وهو جمع دهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمر ذات دهاق، أي: عصرت وصفيت؛ قاله القشيري، وفي «الصحاح»: وأدهقت الماء: أي: أفرغته إفراما شديدا. قال أبو عمرو: والدهق - بالتحريك: ضرب من العذاب، وهو بالفارسية دأشكنجه. المبرد: والمدهوق: المعذب بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه. ابن الأعرابي: دهقت الشيء كسرتة وقطعته، وكذلك دهقته: وأنشد لجر بن خالد:

نُدْهِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْبَاعِ وَالنَّدَى وَبَعْضَهُمْ تَغْلِي بَدْمٌ مَنَاقِعُهُ

ودهمقته بزيادة الميم: مثله، وقال الأصمعي: الدهمقة: لين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء لين؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوما فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿لَتَعْوَأْنَ وَلَا كِذَابًا﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يلغى من الكلام ويطرح؛ ومنه الحديث: «إذا قلت لصاحبك: أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت» (١) وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا، «ولا كذابا» تقدم، أي: لا يكذب بعضهم بعضا، ولا يسمعون كذبا، وقرأ الكسائي «كذابا» بالتخفيف من كذبت كذابا أي: لا يتكاذبون في الجنة، وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنما خففها ها هنا لأنها ليست مقيدة بفعل يصير مصدرا له، وشدد قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (٢٨)، لأن «كذبوا» يقيد المصدر بالكذاب، ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ نصب على المصدر، لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره، جزاء، وكذلك ﴿عَطَاءً﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد، أي: أعطاهم عطاء، ﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيرا، قال قتادة؛ يقال: أحسبت فلانا: أي: كثرت له العطاء حتى قال: حسبي، قال:

وَنُقْفِي وَوَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ

وقال القتبي: ونرى أصل هذا: أن يعطيه حتى يقول حسبي، وقال الزجاج: ﴿حِسَابًا﴾ أي: ما يكفيهم، وقاله الأخفش، يقال: أحسبني كذا: أي: كفاني، وقال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا. مجاهد (٢): حسابا لما عملوا، فالحساب بمعنى العد، أي: بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشرا، ووعد لقوم بسعمائة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدارا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقرأ أبو هاشم: «عطاء حساباً» بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فَعَالٍ، أي: كفافا؛ قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته؛ وأنشد قول الشاعر:

(١) متفق عليه: البخاري (٩٣٤) في الجمعة، ومسلم (٨٥١/ ١١، ١٢) في الجمعة، كلاهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٢) في تفسيره.

إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس: «حسانا» بالنون.

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا] ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴾ [إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا] ﴿

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع (١) على الاستئناف، «الرحمن» خبره، أو بمعنى: هو رب السموات، ويكون «الرحمن» مبتدأ ثانيا، وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض، نعنا لقوله: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: جزاء من ربك رب السموات الرحمن، وقرأ ابن عباس وعاصم وحزمة والكسائي ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ خفضا على النعت، «الرَّحْمَنُ» رفعا على الابتداء، أي: هو الرحمن، واختاره أبو عبيد وقال: هذا أعدلها؛ خفض ﴿رَبِّ﴾ لقربه من قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فيكون نعنا له، ورفع «الرَّحْمَنُ» لبعده منه، على الاستئناف، وخبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه، وقال الكسائي: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ بالشفاعة إلا بإذنه، وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي: لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه؛ دليله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [مرد: ١٠٥].

وقيل: أراد الكفار أي: «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا»، فأما المؤمنون فيشفعون.

قلت: بعد أن يؤذن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ ﴿يَوْمَ﴾ نصب على الظرف؛ أي: يوم لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح، واختلف في الروح على أقوال ثمانية:

الأول: أنه ملك من الملائكة، قال ابن عباس (٢): ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم، ونحو منه عن ابن مسعود (٣).

قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وهو حيال السماء الرابعة، يسبح الله كل يوم اثنتي عشرة ألف تسيحة؛ يخلق الله من كل تسيحة ملكا، فيجيء يوم القيامة وحده صفا. وسائر الملائكة صفا.

(١) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٦).

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس: الطبري (٣٠ / ٢٤) في تفسيره.

(٣) ضعيف جداً: الطبري (٣٠ / ٢٢) في تفسيره، ورواد بن الجراح ضعيف.

الثاني: أنه جبريل عليه السلام، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير^(١)، وعن ابن عباس: إن عن يمين العرش نهرا من نور، مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل، فيزداد نورا على نوره، وجمالا على جماله، وعظما على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة^(٢)، وقال وهب: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى ترعد فرائضه؛ يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملك، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رؤوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الكلام ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يعني قول: «لا إله إلا أنت»^(٣).

الثالث: روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الروح في هذه الآفة جند من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لهم رؤوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام»^(٤)، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ فإن هؤلاء جند، وهؤلاء جند، وهذا قول أبي صالح ومجاهد^(٥)، وعلى هذا هم خلق على صورة بني آدم، كالناس وليسوا بناس. الرابع: أنهم أشرف الملائكة؛ قاله مقاتل بن حيان^(٦)، الخامس: أنهم حفظة على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح^(٧)، السادس: أنهم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة^(٨)، فالعنى ذوو الروح، وقال العوفي والقرظي: هذا مما كان يكتمه ابن عباس؛ قال: الروح: خلق من خلق الله على صور بني آدم، وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح^(٩)، السابع: أرواح بني آدم تقوم صفا، فتقوم الملائكة صفا، وذلك بين النفتين، قبل أن ترد إلى الأجساد؛ قاله عطية، الثامن: أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم^(١٠).

وقرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، و﴿صَفًّا﴾: مصدر، أي: يقومون صفوفا، والمصدر ينبيء عن الواحد والجمع، كالعدل، والصوم، ويقال ليوم العيد: يوم الصف، وقال في موضع آخر: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] هذا يدل على الصفوف، وهذا حين العرض والحساب، قال معناه القتبي وغيره، وقيل: يقوم الروح صفا، والملائكة صفا، فهم صفان، وقيل:

(١) حسن: إلى الضحاك والشعبي.

(٢) هذا موضوع: وإن لم يكن موضوعاً فمتى يكون الحديث موضوعاً؟!.

(٣) الخبر من إسرائيليات وهب ولا يصح.

(٤) ضعيف جداً: أبو الشيخ (٤١٢) وفي العظمة وفي إسناده مجاهيل.

(٥) انظر: الطبري (٣٠ / ٢٤) وهي متون غريبة وأقوال لا تصح.

(٦) موضوع: ومقاتل حاله من الضعف معلومة.

(٧) هذا أضعف من سابقه.

(٨) صحيح إلى الحسن وهو غريب الإسناد: الطبري (٣٠ / ٢٥) في تفسيره.

(٩) ضعيف: وطريق العوفيين إلى ابن عباس ضعيف.

(١٠) صحيح إليه: كذا قاله ابن زيد عن أبيه كما عند الطبري (٣٠ / ٢٥) في تفسيره.

قلت: ورجح ابن كثير أنهم بنو آدم كما في تفسيره (٨ / ٢٤٣).

يقوم الكل صفا واحدا، ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يشفعون ﴿إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة ﴿وقال صواباً﴾ يعني حقا؛ قاله الضحاك ومجاهد (١)، وقال أبو صالح: لا إله إلا الله (٢)، وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يشفعون لمن قال: لا إله إلا الله (٣)، وأصل الصواب، السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة، وقيل: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفا، لا يتكلمون هيبة وإجلالا ﴿إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه، وقال الحسن: إن الروح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل (٤)، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَا بآء﴾ أي: مرجعا بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيرا رده إلى الله عز وجل، وإذا عمل شرا عده منه، وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «والخير كله بيدك، والشر ليس إليك» (٥)، وقال قتادة ﴿مآباً﴾: سبيلا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يخاطب كفسار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث، والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آت فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النارعات: ٤٦] قال معناه الكلبي وغيره، وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين (٦)، قال مقاتل: هي قتل قريش بيد، والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخزي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ بين وقت ذلك العذاب؛ أي: أنذرناكم عذابا قريبا في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يده، أي: يراه، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى، والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن؛ أي: يجد لنفسه عملا، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا، فيتمنى أن يكون ترابا، ولما قال: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن، وقيل: المرء ها هنا: أبي خلف وعقبة بن أبي معيط، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾: أبو جهل، وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسب، وقال مقاتل: نزل قوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾: في أخيه الأسود بن عبد الأسد (٧)، وقال الثعلبي: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر: ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب، وافتخر بأنه خلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة، والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمتى أنه يكون بمكان آدم، فيقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ قال: ورأيت في بعض التفاسير للقسيري أبي نصر، وقيل: أي: يقول إبليس: يا

(١) هذا مما يتحمله المعنى والصواب ما بعده . (٢) رواه الطبري (٣٠٠ / ٢٦) في تفسيره .

(٣) منقطع : بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما .

(٤) هذا غريب ولا سند للحسن فيه من الوحي فهو ضعيف .

(٥) صحيح : سبق عند مسلم ضمن حديث عياض بن حمار في الجنة .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير (٨ / ٢٤٣) .

(٧) انظر : الماوردي (٦ / ١٩١) في تفسيره النكت والعيون .

ليتني خلقت من التراب ولم أقل: أنا خير من آدم، وعن ابن عمر: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يوضع القصاص بين البهائم، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها: كوني ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ونحوه عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، وقد ذكرناه في كتاب التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة، مجودا والحمد لله. ذكر أبو جعفر النحاس: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر، قال أخبرني جعفر بن برقان الجزري، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطيور كوني ترابا، فعند ذلك ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(١)، وقال قوم: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾: أي: لم أبعث، كما قال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٥]، وقال أبو الزناد: إذا قضى بين الناس، وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، قيل لسائر الأمم وللمؤمني الجن: عودوا ترابا، فيعودون ترابا، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٢)، وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجن يعودون ترابا^(٣)، وقال عمر بن عبد العزيز والزهري والكلبي ومجاهد: مؤمنوا الجنة حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها، وهذا أصح^(٤)، وقد مضى في سورة «الرحمن» بيان هذا^(٥) وأنهم مكلفون: يثابون ويعاقبون، فهم كبنى آدم، والله أعلم بالصواب.

(١) حسن: الطبري (٢٨ / ٣٠) في تفسيره.

(٢) مرسل: أبو الزناد تابعي جليل، والإسناد إليه حسن، كما عند الطبري (٢٨ / ٣٠) في تفسيره.

(٣) عزاه السيوطي (٥٠٧ / ٦) في الدر المنثور لابن أبي الدنيا، وليث هذا ضعيف وأثره معضل ولا يحتج به لكونه ضعيفا.

(٤) هذه مراسيل كلها لا يعلم عنها شيء؛ وربض الجنة: يعني ما حولها. اللسان: «ربض».

(٥) عند الآية (٣١).